رؤى

العائلة ضد الفرد
آليات محاصرة الفرد داخل العائلة المغربية

منير الحجوجي

لا تتوقف السياسات العمومية في المغرب عن الحديث عن «التنمية البشرية» باعتبارها أم الأولويات والقضايا. وغالباً ما يتم اختزال «التنمية» في إطلاق بعض المشاريع الاقتصادية سعياً «للرفع» من المستويات المعيشية للساكنة بشكل عام . . . الخ.

أتصور أن حصر «التنمية» في تلبية الحاجات المادية فيه اختزال وتقزيم واضح لتعقد الحاجات الإنسانية ورحابتها. إن تنمية «الأوضاع المادية» وترك المتطلبات/ الأبعاد الذهنية والثقافية في يد الرجعيين ممن لا يخدمهم وعي المغاربة بالسياسات والخيارات المسؤولة عن تنامي واستفحال التصدع والهشاشة والضياع بينهم، هو قتل للتنمية في المهد. تلجأ السياسات العمومية إلى اختزال حياة البشر في الحاجات البيولوجية الأولية، كالأكل، والشغل، والنقل، في أكبر عملية لحجب الأبعاد والحاجات الإستراتجية المركبة الأخرى، ومنها الحاجة إلى التساؤل حول المستفيد الأول من حبسنا في سجون التطلعات/ الاستيهامات المادية . . . ولتصريف هذه التظليلات الخطيرة، تعتبر السياسات الحكومية أن الحاجات المعرفية والعاطفية والأخلاقية والأيديولوجية والروحية والوجودية العامة هي من ضمن ما ينتمي إلى دائرة «الحريات الفردية»، ما يجب عدم التدخل في شأنه. وهذا حق عظيم يراد به باطل أعظم. إن عدم التدخل في البنى الذهنية للبشر شيء جيد إذا لم يكن يخفي رغبة خسيسة في إبقائهم داخل بناهم الموروثة المتصلبة. لذلك، أتصور أنه ما لم يتم تفكيك هذه البنى، فلن نكون سوى أمام وهم تنمية ووهم تقدم ووهم حداثة ووهم مغرب «حداثي تقدمي».

يصعب جداً رفع تحدي الرهانات الداخلية والكوكبية الضاغطة دون التدخل في البنية الذهنية للمغاربة، وإحداث تغييرات جذرية فيها. أنا من الذين يعتبرون أن هذه الذهنية تحمل تصورات فاسدة، وعلى جميع المستويات الثقافية والتواصلية والسياسية والوجودية؛ تصورات يصعب بل يستحيل معها وبها بناء أية علاقة صحية وخلاقة مع العالم. أنا من الذين يعتقدون أن شعباً واعياً بحقوقه وواجباته وأولوياته ومسؤولياته وإكراهاته داخل محيط محلي وجهوي وقاري وكوكبي متحول وعنيف لا يمكن أن تخدره أو تتلاعب به أية سياسات أو خطابات كيفما كانت «دقة» و«تقدمية» و«حداثة» تلك السياسات والخطابات. بعبارة أخرى، إن شعباً له الحد الأدنى من التأهب المعرفي والسياسي يكون مهيأ أفضل لمواجهة مختلف الفاسدين المنتجين والراعين الأساسيين لتخلفه. لذلك، فإن دعم التنوير الذهني من خلال تفكيك/ فك الارتباط بمختلف الأنساق والآليات الرجعية، هو المدخل الحاسم لإنجاح أي مشروع تحديثي.[1]

تندرج الورقة الحالية ضمن هذا التصور العام. بشكل أدق، سأحاول التنبيه إلى استعجال نقد العائلة المغربية كنسق أبستمولوجي وتواصلي مضاد لانبثاق قيم الحداثة والتقدم. إن التربية على الحداثة والتقدم يجب أن تبدأ من قلب العائلة، ولا يمكن أن نطلب من طفل تربى مثلاً على استدخال الانغلاقات العائلية أو العرقية أو القبلية أو«الدينية» باعتبارها بداهات لا سبيل إلى التشكيك في «قداستها» أن يكون متحرراً ومنفتحاً وإنسانياً عندما يكبر، وتمنح له رئاسة شركة استثمارية أو مؤسسة تعليمية أو مديرية حساسة في إحدى الوزارات . . . لذلك، يبدو لي من المهم جداً فتح ورشة العائلة المغربية (العربية) في سياق كشف الغطاء عن أحد أهم الأنساق المعطلة لإطلاق التنمية

والتقدم عندنا.

إن الفرضية الأساسية التي أحاول الدفاع عنها هنا هي أن تغيير البنية الذهنية للآباء وتصوراتهم لذواتهم ولأطفالهم وللعالم بشكل عام هو المفتاح الأول لبناء تربية مستجيبة لرهانات عصرنا . . . للأسف، إن الخريطة الذهنية للآباء، أي مجموع المبادئ الواعية واللاواعية التي توجه قيادتهم للعائلة هي أقرب إلى خرائط الفترة القروسطية أو عصر النهضة منها إلى الخرائط الحالية. نعلم أن خرائط العصور الوسطى لم تكن مكتملة، ليس لأنها كانت جاهلة ببقاع كثيرة من العالم فحسب، ولكن، وهذا هو الأهم، لأنها كانت عاجزة عن الربط بين مختلف ربوعها. هذه هي الخريطة التي يستعملها الآباء الحاليون، حتى عندما يكونون أمام مشاكل أو قضايا عائلية أو تربوية أو عاطفية أو وجودية تتطلب معالجة مركبة وإنصاتاً متعدد الأبعاد ومداولات مفتوحة وطويلة النفس.

إن مهمة كل رب وربة أسرة إما أن تكون أيكولوجية وإما لا تكون. لم يسبق أبداً للخطابات الأخلاقية أو الوعظية أن حلت مشكلاً عائلياً حاداً. أما القمع فهو يصنع، بطبيعة الحال، أطفالاً مهزوزين إن لم يكن ميتين داخلياً. إن ما يجب تفعيله، عكس هذه التقنيات المتخلفة، هو نوع من الإنصات الأيكولوجي لعوالم الطفل ولإمكاناته وترددات ومخاوفه وقدراته على الفعل والتقدم. لا يتعلق الأمر بإطلاق يد الطفل في كل أموره . . . لا . . . إن الأمر يتعلق، بالأحرى، بمحاولة وضع نوع من التوازن بين تطلعين متضادين يحملان الطفل وكل الأنساق الحية الموجودة فوق كوكبنا، تطلع الطفل إلى ممارسة حياة ذاتية حرة وخلاقة من جهة، ثم نزوع العالم المحيط (العائلة، المدرسة . . .) إلى وضع قيود في وجه هذا التطلع من جهة أخرى. إن ما نلمسه للأسف هنا هو أن الآباء، وعلى الرغم من التقدمات الحقيقية التي حصلت في طرق التربية، ما زالوا يركزون تربيتهم على الكم لا على الكيف، حيث يتم تجاهل القدرات الذاتية للطفل لصالح ترسيخ تأقلمه مع الثوابت والمعايير الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ذات الصلاحية «الأبدية». وبسرعة يفقد الطفل هويته الخاصة عندما يحاول لعب الدور المنتظر منه. إن تقليد النموذج الاجتماعي ينحو لأن يمحو بل ويسحق، ومنذ الصغر، القدرات الذاتية للطفل.

ينبغي للآباء أن يفهموا أن أولوية الأولويات يجب أن تمنح للمعاني والرغبات المنبثقة على المعاني المحسومة والمحددة سلفاً. في العمق، إن علاقة الآباء بأطفالهم تظل بلا معنى إذا لم تجعل من دعم الانثباقات انشغالها الأول. يجب ألا نغفل أن الطفل ليس ابن والديه البيولوجيين فقط، ولكنه ابن أربعة مليارات سنة، وهو تاريخ نشوء وتطور الحياة وكل الأنساق الحية فوق كوكبنا. إن الطفل كائن يتحرك طول الوقت على إيقاع الأمل في حدوث الأفضل والأغنى والأرحب لنفسه ولمجموع الحياة التي هو وريثها وحامل سرها والمدعو نظرياً إلى الزيادة في قدراتها . . . يجب ألا ننسى أيضاً أن الطفل كائن قادر على أشد أنواع الارتداد على نفسه، وعلى إطلاق أعنف أشكال التدمير الواعي- اللاواعي ضد ذاته ما إن نضعه داخل السياقات المساعدة على ذلك (تلقيه لضربات تربوية ونفسية خطيرة، اغتصاب جنسي، قمع رغبته في الكلام، تعويض رغبته برغبة أخرى . . .).

أود أن أورد مثالاً يعبر فيما أرى على ما أرغب في قوله هنا. قام أحد علماء التربية المتأثرين بالعالمين الكبيرين البولندي كورزاك والفرنسي فريني بالتجربة الثورية التالية. وصلته أخبار عن وجود تلاميذ «مشاغبين» و«متمردين» على كل شيء داخل قسمهم. جاء عالمنا التربوي إلى المعلم واقترح عليه أن يحضر له لقاء مع هؤلاء الأطفال. فكان له ذلك. كانت نية الباحث أن يبحث في ما وراء «تمرد» و«شغب» التلاميذ عما يمكن أن يفسر به سلوكهم فيغيره. فوجد دون عناء كبير أن كل هؤلاء الأطفال تحركهم أحلام لم يكن بمقدور الفضاء المدرسي أن يستوعبها ولا، بطبيعة الحال، أن يحققها. أسر له أحدهم أنه يعشق الرسم حد الجنون، وحدثه آخر عن تعلقه الشديد بالموسيقى، وشرح له ثالث كيف أنه لا يقدر على التركيز في الفصل لأن كل اهتمامه منصب على شيء آخر، هو الحصول على دور داخل الفرقة المسرحية لحيه . . . بعدها، اجتمع العالم مع أولياء الأطفال واقترح عليهم أن يساعدوا أطفالهم على ممارسة رغباتهم داخل تكوينات بورش متخصصة. تجاوب الآباء. فكانت النتيجة باهرة وعلى جميع المستويات: لقد انضبط «المتمردون» وأصبحوا أشخاصا مختلفين جداً عما كانوا عليه من ذي قبل. إن الدرس الذي يتوجب استخلاصه هنا هو أن الإنصات للتلاميذ ومساعدتهم على تطوير قدراتهم الذاتية كان له الدور الحي والمهم جداً في إعادتهم للحياة.

إن إستراتيجية عالم التربية الأيكولوجي هذا -الأيكولوجي بمعنى المنصت للطاقات الثاوية في قلب التلاميذ- هي بالذات ما ينقص الآباء المغاربة. والسبب، ضمن أسباب أخرى، هو عدم توفرهم لا على الرغبة ولا على الأدوات الكفيلة ببناء علاقة من هذا النوع. لا يمكن للآباء المغاربة أن ينصتوا للتفاعلات الداخلية المركبة التي تحمل وتفعل في أطفالهم إلا إذا كانوا هم أنفسهم أشخاصاً مركبين، أو على الأقل اعتبروا أنفسهم كائنات حاملة ومحمولة بمستويات وأبعاد وتفاعلات مركبة. والحال أن من لم ينصت إليه في فترة طفولته، ومن سحقت رغبته في الكلام أو دمرت نفسيته وشخصيته في صراع «تافه» بين والديه، ومن عوّض كلامه بكلام العائلة أو القبيلة أو الأمة، ومن اختزل في وظيفة إعادة إنتاج الهوية الاجتماعية لا يمكنه أن يكون، عند كبره، سوى كائن فارغ، مهزوز، تابع، بلا معالم هوية ذاتية، غير قادر بالتالي على قيادة ذاته، فبالأحرى قيادة عائلة.

العائلة المغربية وسحق الفرد

كل عائلة مغربية تعطي الانطباع بأن كل شيء يسير على ما يرام داخلها. لكننا ما إن نحفر قليلاً في ما وراء سطح الظواهر وما يقوله الأشخاص عن أنفسهم حتى نقع على شيء آخر تماماً. لا أريد هنا الوقوف عند البنيات المرضية للذات المغربية المسؤولة عن كثير من اهتزازات الأسرة، (فهذا عمل يتطلب نفساً طويلاً وشاقاً وتكاتف جهود جماعات بحث صلبة مؤمنة بالإنسان وبآلامه، وهذه جماعات نادرة الوجود إن لم تكن منعدمة عندنا). إن هدفي هنا هو أن أوضح أمراً أساسياً وهو أن العائلة المغربية، في سياق بنائها لـ«قيمها» التربوية، ترسخ إحدى الدعامات الكبرى للسلطة، وهي منع انبثاق فرد حر ومستقل وشريف. وباستعمال لغة السوسيولوجي الكبير بيير بورديو (Bourdieu)، أقول إن العائلة المغربية-بالنظر

إلى هذه التربية القائمة في الأغلبية الساحقة للحالات على القمع الرمزي الهادئ، وبالتالي الفعال للذاتية كما سأحاول إضاءة ذلك في الفقرات اللاحقة- تقوم بعمل السلطة مكان السلطة وأفضل من السلطة . . . إن تفكيك هذه الوشائج الوثيقة بين العائلة والسلطة، والحفر في العائلة كجهاز أيديولوجي للدولة بتعبير المفكر الكبير لوي ألتوسير (Althusser) يظل أهم ورشة في أفق تحليل أحد أكبر أعطابنا الاجتماعية.

كيف نفسر حرب العائلة المغربية على الفرد/ الطفل؟ لماذا تهاب عائلاتنا طفلاً/ فرداً واعياً ومستقلاً ومسؤولاً عن ذاته وجسده وأحلامه؟ لماذا تبذل أضخم الجهود لفصله عن ميولاته وتخويفه من رغباته قبل إلحاقه بأيديولوجيا اجتماعية محسوم في «مقدساتها»؟ لماذا نكره الطفل الذي يطرح الأسئلة، والطفل الذي «يشاغب»، وذاك الذي يلامس عضوه التناسلي بكل جدية الطفل الذي يلهو؟ كيف نطلب من ابننا أن يكون منفتحاً ومفتوحاً ونحن نمنعه من التعبير عن عواطفه وأفراحه وإنجازاته وإخفاقاته المدرسية وغيرها؟ كيف نطلب منه أن يكون «رجلاً»، «قوياً»، «صلباً»، وقادراً على المواجهة، ونحن نأمره بمغادرة المكان كلما اجتمعنا للحسم في مشكل عائلي خطير (ونحن نعلم أن «الاجتماع» بالكبار والإنصات لنقاشاتهم هو مما قد يدفع الطفل إلى الانتباه إلى وجود شيء حيوي وهام اسمه قضايا العالم وأخطاره)؟ لماذا تسارع الأم إلى تثبيت الأقراط في أذني البنات ولا تفعل ذلك مع الذكور؟ لماذا تطلب من ابنتها تحضير مائدة الأكل ولا تطلب من الولد فعل ذلك؟ كيف نطلب من الأخ أن يحب أخته ومن الأخت أن تحب أخيها ونحن نقيم أسوار العزل بينهما، ونحن ندفع الأخت إلى استدخال آليات خضوعها لأخيها، كمقدمة للخضوع لاحقاً لزوجها ولسلطة/ قوة الأيديولوجيا الاجتماعية؟ لماذا تزين الأم جسد طفلتها (ليلة القدر، استقبال ضيوف، مناسبات اجتماعية . . .) ثم تطلب منها وتفرض عليها، وفي الوقت ذاته، إخفاء جسدها عن الأنظار تفادياً «للكارثة»؟ لماذا؟ . . . ولماذا؟ . . . ولماذا. . .؟

هذه إحدى آليات إنتاج الفرد المهزوز داخل العائلة المغربية. إن التدقيق في هذه الآليات المسؤولة عن تصدعات أكبر وأخطر يتطلب بحثاً نفسياً وسوسيولوجياً يستدعي، بدوره، جهود جماعات بحث غير تلك التي تحرق حياتها في اللهث وراء الألقاب «العلمية» الخاوية على حساب الإنتاج العلمي الرصين. على كل حال، ليس هذا هو موضوعي، موضوعي هو محاولة طرح المقدمات الكبرى لنوع من التحليل الأبستمولوجي-السياسي للمرجعيات الجذرية التي تغذي حرب العائلة المغربية على الفرد وتمنع ولادته كمقولة حية ومستقلة . . . تتعلق المرجعية الأولى بالهوية التاريخية، وتخص الثانية الآليات «التواصلية» داخل الأسرة، أما الثالثة فتحيل إلى العلاقة بالحاضر، وبشكل أدق إلى كيفية تمثل منظومة الرأسمالية الجديدة الزاحفة على العالم وعلى «ثوابت» البشر ومرجعياتهم كيفما كانوا والمبنينة لأدق تفاصيل عيشهم كما سنرى. فرضيتي هنا هي أن هذه المرجعيات الثلاثة هي التي تمنع عائلاتنا من أن توفر لأبنائنا تربية تسمح لهم ببناء علاقة صحية وحرة وسعيدة بأنفسهم وبالعالم. إن كل محاولة يقوم بها المثقف أو المربي في سياق دعم «المجتمع الحداثي الديمقراطي» يجب أن تبدأ من هنا، من ملاحظة الخطورة القصوى لهذه المرجعيات على الحداثة والتقدم، وإلا تحولت إلى خطاب للاستهلاك الإعلامي والتنويم الاجتماعي.

من ورشة الطفولة المبكرة التي نظمها المركز في قاعة جمعية الهلال الأحمر في البيرة.

1. خلفيات وأخطار النزوعات الفلكلورية

أمام المستجدات الخطيرة التي تهز ثوابت العالم وتصورات البشر لذواتهم وللآخرين، ما زال المغاربة يتمرسون خلف «الحقوق الثقافية» بدعوى الخصوصية، وينغلقون على الذات بدعوى التميز والصفاء بل والقدسية، ويجاهدون للتغلغل عميقاً في التاريخ ليؤكدوا، كما يقول بعض السوسيولوجيين المغاربة، إثبات جذورهم وقدرتهم على البقاء، في محاولة مستميتة للتقليل من خطورة المستجدات والمتغيرات العالمية. إن استعمال الخصوصية هنا، يقول السوسيولوجيون المغاربة عن حق، يتم ضد العقل والمنطق والتاريخ والتحول. بعبارة أخرى، يختار المغاربة، في مواجهة «أخطار» و«تهديدات» العالم العنيف حقاً الحالي، الاحتماء وراء بنيات وثوابت صيغت، في المجمل، إبان القرن الثاني عشر، يوم أحكم فيه سلاطين استبداديون بمساعدة فقهاء وصوليين قبضتهم على الإسلام وعلى العقول عندما صاغوا قوانين -بشرية في عمقها- قدموها على أنها قوانين إلهية مطلقة، فكانت هذه هي الخدعة الأبستمولوجية الكبرى التي حكموا بها الأمة -وما زالوا- لقرون طويلة جداً. من المؤسف أن نرى المغاربة، بمناسبة وبغير مناسبة، يتفاخرون بتشبثهم بل هوسهم بأيديولوجيا تمنع انبثاقهم كذوات متحررة وفاعلة، من المؤسف أن نرى الآباء يربون أولادهم على استدخال ثوابت «دينية» نرى واضحاً كيف أنها تنتج انغلاقات فردية وجماعية خطيرة (أشير مثلاً إلى التربية على استدخال الهيمنة الذكورية باعتبارها هيمنة متأصلة في «القول الإلهي» مما لا يجب مناقشته). يعتقد الآباء أن هذه القوانين -الإلهية في مظهرها والبشرية والتاريخية والسياسية في عمقها كما سبق وأن قلت- وحدها قادرة على مواجهة أخطار الحضارة الحالية والتباساتها، ومنها «تصدع» و«انحلال» العلاقة بين الرجل والمرأة في العالم الغربي «التائه» و«الضال». هذا أحد أكبر أوهام التربية المغربية. إن الأمر يتعلق، لا أقل ولا أكثر، برؤية فلكلورية لذواتنا تجعلنا نعتقد أننا أمة بخصوصيات ومكتسبات لا يتوفر عليها الآخرون، أقصد بالخصوصية هنا ذلك التجذر «الصلب» داخل تاريخ «ديني» «استطاع» على الدوام «صد» هزات الأيام وتربصات الأعداء. إننا نعلم أن الالتصاق/ الهوس الواعي/ اللاواعي بالثوابت، وبخاصة تلك التي تتغلّف بالمقولات «الدينية»، لن ينفع في مواجهة حروب حضارية ضارية، اقتصادية وعلمية وغيرها، ستسحق بلا أدنى شك الهويات المتصلبة . . . ووحدها الشعوب التي انخرطت في مواجهة إيجابية وخلاقة مع التحولات الكوكبية الجارفة الجارية سوف تبقى على قيد الحياة.

يتمثل واجبنا الأبستمولوجي والأخلاقي الأول هنا والآن في مساءلة هذه الهوية الفلكلورية التي تقدم «العرق» المغربي كعرق «غني» بثوابت تاريخية «وطنية» ليست في الأصل، كما يقول بيير بورديو في سياق آخر، سوى ثوابت جماعة خاصة (هي الجماعة المشكلة من العائلات الشريفية والمخزنية (التابعة للمخزن أي للنظام) والفاسية (نسبة إلى مدينة فاس) والتجارية الكبرى) انتصرت تاريخياً وفرضت مبادئها ورؤيتها للعالم على المجموعات اللغوية-العرقية المغربية الأخرى باعتبارها مبادئ وطنية موحدة، حاجبة بذلك أصلها التاريخي الخصوصي كمبادئ للهيمنة (نموذج تقديم الطرب الأندلسي-كطرب معروف أنه من إنتاج جماعة تاريخية خاصة- صبيحة الأعياد الوطنية والدينية باعتباره موسيقى لكل المغاربة). إن أخطر ما في الخطاب الفلكلوري أنه يسخر «الهوية الوطنية» لشرعنة استحواذ جماعة خاصة على كل الجماعات المتنافرة الأخرى . . . وهذه هي خدعته السميائية والسياسية الكبرى.

إن الخطاب الفلكلوري خطير أيضاً على مستوى آخر. فهو يرفض أن يرى أن معالجة تعقيدات العالم تتطلب آليات وموارد غير تلك التي وفرها الموتى. صحيح أننا نعثر في تاريخنا على موارد معرفية ووجودية حقيقية بل وثورية، إلا أن قوى المحافظة والجمود سحقتها لأنها فهمت مبكراً أنه يستحيل لها أن تحكم وتستحوذ وتتسلط ما لم تحافظ على غالبية الأمة داخل بناها و«مقدساتها» الذهنية المتجمدة. هذه بالضبط هي الخلفيات السياسية القبيحة للخطاب الفولكلوري.

2. نفي العالم

لنقف الآن عند علاقة الآباء المغاربة بالعالم كمجموع أنساق اجتماعية واقتصادية وسياسية وبيئية وذهنية وعاطفية ووجودية متحولة ومفتوحة كما تقدمه لنا العلوم الإنسانية المعاصرة. إن أول ما يصدمنا هنا هو الغياب شبه الكلي للرؤية المركبة للعالم، الرؤية المنصتة للتعقيد غير المسبوق الزاحف على مختلف أنساق العالم . . . إن العائلة المغربية هي مكان لتعلم كل شيء ما عدا أدوات قراءة التعقيدات/ الانعطافات الكبرى للعالم، والسبب هو ترديدها الذي لا يكل لعادات ذهنية مرتاحة في اللامبالاة والقدرية والتفكير اللاتاريخي والتنميطات السهلة والحلول التبسيطية والتعميمات القاتلة و . . . .

تكشف إستراتجية قيادة النقاش داخل العائلة المغربية عن كل هذه الآليات المتخلفة. إن أول شيء يصدمنا هنا هو أن الآباء، عند مناقشتهم أبناءهم حول قضايا حساسة (حرب، أحداث عالمية، تحولات مدوية، نهب مؤسسة مالية، فساد انتخابي . . .) يقاومون كل انفتاح فعلي وجذري على التفكير الجذري في مثل هذه القضايا، لأن كل نقاش مفتوح وجدي يستشعر على أنه تعريض للعائلة لجهنم المجهول. لذلك، غالباً ما يتم التوجه نحو نقاشات تقول كل شيء ولا تقول شيئاً، نقاشات «يتعلم» منها الأبناء أن تعويم الكلام وإخفاء المواقف الصارمة ونزع طابع الحدة عن الأفكار وإخفاء تفاصيل الرأي الذاتي العميق وركوب موجة التواصل البارد تظل شروط «نجاح» النقاش والبقاء داخل الدائرة المشمولة بـ«عطف» و«رضا» العائلة . . . من وجهة نظر الرؤية الأيكولوجية التي أدافع عنها هنا، تنتج هذه التعاملات في النهاية علاقات «تواصلية» يسكنها فيروس الخوف من الآخر، ما لا يمكن، بأي حال من الأحوال، أن يساعد أي كان داخل العائلة على السير في طريق التقدم وتطوير الذات والوعي بالعالم.

يقرأ الآباء عدم الخوض في النقاشات الجادة، والإعراض عن القضايا الخطيرة وتجنب الآراء الجذرية والتستر عليها على أنها دلائل لا غبار عليها على اتّزان أولادهم وحكمتهم ويقظتهم . . . وكما سبق وأن قلت، تكمن الخطورة هنا في أن الأطفال ومجموع أفراد العائلة يستدخلون آليات تواصلية-أبستمولوجية خطيرة مفادها أن تجنب «الإثارة» وكبت الذات والابتعاد عن التفكير «الشاق» والهروب من النقاش الخلاق ليست فقط علامات على «الصحة» النفسية

ولكنها المدخل الأول والأخير لبناء الموقع الاجتماعي والسياسي والأنطولوجي الناجح والمضمون والمأمن داخل العائلة وداخل العالم!

يربي الآباء أبناءهم على اللامبالاة تجاه القضايا الأساسية للعالم، وعلى الفكرة الخطيرة بأن الأحداث السياسية الساخنة والمشاكل الاقتصادية الضاغطة والملفات البيئية المصيرية أشياء تقع خارج دائرة العائلة، ولا علاقة لها بما يجب أن يشغل تفكير أو بال أعضائها. الخطير هنا أن التجربة اليومية تؤكد هذه الرؤية، إذ أن الطفل أو المراهق لا يرى-بسبب غياب بيداغوجيا أبوية تشرح له العالم كما سأوضح- أية علاقة بين الأحداث والإستراتجيات والقرارات الدولية من جهة، وما يجري داخل العائلة من جهة أخرى، لا يرى، مثلاً، أي رابط بين الهجوم على العراق، و«الحرب على الإرهاب» من جهة، والتقلص الخطير في دائرة الحريات الكلامية داخل الأسرة، مثلما لا يلمس أية علاقة بين الجرائم الاقتصادية الكبرى والمستمرة داخل البلد وتدهور الوضع المادي إن لم يكن الصحي الدقيق لأحد والديه . . . إن هذا الجهل بالعلاقات المركبة بين العالم والعائلة هو ما يدفع الطفل أو المراهق إلى الاعتقاد بأن حياته الشخصية تبدأ وتنتهي قبل أسوار الدار، وأن ما يجري خارجها هو من ضمن ما يدخل في دائرة القضايا العامة العائمة. هذه هي سياسة العائلة في عزل أبنائها عن العالم.

لا يتوفر الآباء المغاربة على أية بيداغوجيا لتقريب القضايا الأساسية للعالم، التي هي القضايا الأساسية للعائلة والطفل. فهم لا يرون كيف يمكنهم أن يبينوا أن ما يحدث في العالم يوجه قرارات العائلة ويرسم حدود تحركها داخل فضاء البيت وداخل الفضاء الواسع للعالم ذاته. أما في الحالة التي يجدون فيها أنفسهم مضطرين، لسبب أو لآخر، لمناقشة إحدى القضايا أو المستجدات الحساسة، فإنهم غالباً ما يقومون باختزالها داخل واحد من أبعادها، ذلك البعد الذي يكونون قادرين على «فهمه»، وبالتالي على التحكم فيه، ناسين أو متناسين أن التحولات غير المسبوقة والهزات العنيفة والأحداث الانقلابية تتطلب معالجة شمولية ومركبة تربط التفاصيل الصغرى بالإطارات الكبرى والأجزاء بالكليات الشاملة التي تضمها وتعطيها معنى. وعوض ربط الحدث بسياقاته، يلجأ الآباء إلى عزله ونزع طابع الحدة عنه، وشل بالتالي حمولاته. ولن أبالغ إذا قلت إن أحد أهم شروط التربية في هذا القرن المتحول والعنيف هو وضع طفلنا، ويومياً، داخل سياقات ما يحدث ودفعه، ويومياً كذلك، لربط ما يرى ويسمع ويقرأ بذاته وعائلته وجهته ومدينته ووطنه وكوكبه.

3. تناقضات مدمرة

لا بد من الوقوف عند الهوة الخطيرة بين تصورات الآباء لما يجب أن تكون عليه التربية «الصحيحة» والآليات الفعلية التي يلجأون إليها لتطبيق تلك التصورات. مثلاً، وحتى وإن ألح الآباء في مجالسهم العائلية على ضرورة «استقلال» و«نضج» الطفل، فإنهم لا يفتأون يرسخون لديه آليات التبعية والخضوع للعائلة ولخياراتها منطلقين من اعتقاد راسخ -يشكل ثابتاً قوياً لدى المجتمعات المتخلفة من مثل مجتمعنا- مفاده أن الطفل لا يمكنه أن يفكر بنفسه، وأنه من الخطير جداً منحه حرية وإمكانية صناعة حياته بنفسه، لأن الحرية ستلقي به في غياهب الفوضى ومتاهات المجهول، بعيداً عن «الضمانات» الوجودية بل و«الدينية» التي يوفرها له الاختباء/الاحتماء بين أحضان العائلة. هنا، يجهل الآباء تماماً أن الطفل-كأي نسق حي فوق كوكبنا- لا يمكنه أن يحيى ويكبر ويحقق أبعاده وحاجاته كاملة إلا إذا أحس بأن له الحد الأدنى من حرية الحركة والفعل والمناورة الخلاقة.

أريد أن أعطي مثالاً آخر. كثيراً ما نسمع الآباء يمدحون، في مجالسهم الرسمية وأمام ضيوفهم، قيم التشاور والحوار داخل العائلة، وبخاصة مع الأطفال، إلا أننا، وهنا أيضاً، غالباً ما نجدهم لا يخضعون مثلاً رسم قواعد العيش داخل العائلة لأي نقاش أو أخذ ورد . . . وعندما يحس الطفل يوماً بعد يوم بأن لا دور له في تصور وبناء أولويات العائلة، وأن لا أحد يطلب آراءه بصدد قضية ما، وأن لا أحد يرجو اقتراحاته حتى في المواضيع «التافهة»، فإنه ينزح، بشكل لاواعي تماماً، ودون حتى أن يشعر والداه بذلك، نحو نوع من «الحريك» (الهجرة السرية) العاطفي حتى لا تسحقه ذوات أبوية منتفخة، بل قد يحول الطفل معاناته الدفينة التي يستحيل تحملها إلى خضوع يسهل تدبيره. إننا هنا أمام آخر مشهد من مشاهد ما يمكن أن نسميه الجريمة التربوية الكاملة: جريمة سحق الطفل تحت حذاءات الذوات الأبوية المتأكدة من «مطلقاتها».

من ورشة الطفولة المبكرة التي نظمها المركز في قاعة جمعية الهلال الأحمر في البيرة.

نحو تربية أيكولوجية جذرية

سبق لكارل ماركس أن طرح سؤالاً أساسياً في سياق تفكيره في التربية. وهذا السؤال هو: إذا كان الآباء يربون، فمن يربي المربين؟ أتصور أن المدخل لبناء علاقة تربوية صحية وخلاقة خارج مجموع الأمراض التي سبق عرضها يكمن في تغيير أمرين مهمين جداً:

أولاً، على الآباء مغادرة مواقعهم وتصوراتهم الأصولية نحو فلسفة تربوية تحتل فيها العلاقة وآليات بناء العلاقة الموقع المركزي. ما أريد قوله هنا هو أنه لا يكفي أن نلد أطفالاً لنقول عن أنفسنا أننا آباء. البيولوجيا وحدها لا تصنع عائلة. البيولوجيا بلا سياسات تواصلية كالفيزياء بلا رياضيات، شيء مستحيل تماماً. إن أخطر ما يمكن أن نفعله هنا هو أن نختزل التربية داخل وهم تلبية الحاجات المادية على حساب الحاجات العاطفية والتواصلية والوجودية للأبناء.

إن أكبر وهم يعيش عليه الآباء المغاربة هو ثقتهم العمياء في آليات تربوية لا يمكنها معالجة التعقيدات التربوية وغير التربوية لعصرنا . . . أتصور أنه لم يعد هناك أي مكان لهذه الآليات التي تمجد التراكمات والمكتسبات الموروثة على حساب الانبثاقات والتجددات الخلاقة . . . أقترح هنا تصوراً تربوياً مضاداً تتحول معه العائلة إلى نسق أيكولوجي مفتوح لتدبير الآراء ودعم الحريات وإطلاق المبادرات. يمر تفعيل هذا التصور من إقرار الآباء بلا اكتمالهم كأشخاص وبجهلهم حتى، وبخاصة في أوج لحظات «معرفتهم» بطفلهم أو بأية قضية ترتبط بطفلهم. على الآباء، وكل المربين بشكل عام، أن يضعوا نوعاً من «حجاب جهل» (Voile d'ignorance) كما يقول المفكر السياسي الأمريكي الراحل جون راولز (Rawls() في سياق آخر، معنى ذلك أنه يمنع عليهم أن يطلقوا أي حكم قيمة على الطفل قبل اللقاء به والإنصات إليه، وأن يتركوا العلاقة تنبني من تلقاء ذاتها انطلاقاً مما يحدث من تفاعلات داخلها. هذا قرار أخلاقي أبستمولوجي حاسم. عليهم كذلك أن يفترضوا، وهذا هو الحكم الوحيد المسموح لهم به، بأن الطفل يحمل إمكانات وطاقات يكمن دورهم البيئي المركزي في توفير الإطار السلس والممتع لاستقبالها، تماماً كما يستقبل واد مضياف كل المياه التي تنزل إليه من الجبال المحيطة به فتجعله أكثر خصوبة وبهاء.

ثانياً، وحتى يتخلصوا بشكل جيد من قبضة مختلف أشكال عنفهم التربوي، على الآباء أن يفترضوا أن أهم ما يجب أن يربطهم بأبنائهم ليس فقط، كما سبق القول، حاجات البيولوجيا، ولكن حاجات من نوع آخر؛ حاجات عميقة، الحاجات إلى الحب والعاطفة والتواصل والإنصات والمشاركة . . . عليهم أن يفترضوا أن مشاكل أولادهم (الوحدة، اللاتواصل، اللافهم داخل الأسرة . . .) هي نفسها مشاكلهم كما عاشوها في طفولتهم ولازالوا يعيشوها بطريقة أخرى. هذا هو الرابط العائلي الحيوي، أو البيئي. ليس هناك طفل واحد لا يعيش هذه المشاكل والتناقضات والمآزق التي تفعل في كل البشر، بدءاً بآبائه ومحيطه القريب. أما إذا نظرنا إلى الطفل ككائن لا يعرف اللافهم والوحدة والألم والسعادة والحلم، فإننا نمر بجانب الغنى الهائل لأشكال الحياة التي تحمله ويحملها. لا وجود لطفل واحد خارج ما يحس به كل واحد منا. هناك دائماً جزء من قضايا الإنسان ومآزقه وأحلامه داخل كل طفل، كيفما كانت هويته ولغته ودينه. إن الإحساس بالطفل ليس شيئاً آخر سوى الإحساس بتلك الديناميات الكونية الثاوية فيه/ فينا، بما أن جميع البشر، أو هكذا يفترض، مسكونون بالمشاكل والرغبات نفسها.

أتصور أن الطفل لم يولد بعد داخل أنساقنا الأسرية كمقولة أبستمولوجية مستقلة . . . وأتصور، كذلك، أن المدخل الأول لتسريع هذه الولادة التي ما أحوجنا إليها يكمن في تغيير أدوات تعاملنا مع الطفل والبدء في الاقتراب منه ككائن بيئي، أي ككائن يحمل طاقات داخلية مركبة هي نفسها الطاقات التي يحملها كل كائن حي فوق أرضنا . . . إن النظر إلى الطفل من هذه الزاوية البيئية هو العلاج الفعال ضد كل الاختزالات داخل معتقلات الأيديولوجيا العائلوية.

4. أفيون الاستهلاك

الخطر الآخر الذي يتربص بالعائلة المغربية (العربية؟) ويهدد بتدمير آخر ما تبقى من مكتسباتها التقليدية (التضامن الأسري مثلاً على علاته) هو زحف نموذج/ مخدر الاستهلاك الفرداني المتطرف في الحياة. نعلم أن العالم الذي «يضمنا» أصبح لا يختلف كثيراً عن ساحة حرب يبذل المشاركون فيها أقصى الجهود، ويطورون أعنف الخطط، وينحتون أخبث الأسلحة للاستحواذ على المواقع الاقتصادية والاجتماعية والإدارية التي تضمن الاستفادة من أكثر ما يمكن من المنافع والأموال.

انخرطت الأسرة المغربية بقوة في هذه الحرب، وجعلت من اللهث، بل وعبادة الإغراءات الاستهلاكية، هدفاً أولوياً لحياتها ولحياة أطفالها؛ سواء على مستوى مساراتهم التعليمية أو الوجودية العامة. فيما يخص الاختيارات التعليمية مثلاً، لا نحتاج لمجهود خارق حتى نرى أن مجمل نقاشات العائلة المغربية تتمحور حول مدح التخصصات والعلوم «النافعة» و«الرابحة» التي هي علوم التجارة، والبنك، والتسيير، والاتصال الضامنة، في تصور الآباء، للموقع الذي يغني ويحمي من الذئاب الجائعة الكثيرة المتربصة من حول العائلة وحتى من داخلها.

إن جري العائلة المغربية الملح وراء «علوم» و«مهن» النفع والمردودية الفائقة والفورية التي يتم تقديمها كخيارات لا يمكن النجاح في الحياة من دونها، هو في طريقه لأن يخلق جيلاً «حربياً»، جيلاً يرى في ممارسة «التدافع» (الرغبة الحثيثة في إزاحة الآخر) آلية أنثروبولوجية عادية بل مطلوبة جداً . . حتى فترة قريبة، كانت العائلة تربي على قيم الجد والصدق والمثابرة وتمقت الكذب والمراوغة وكل الخيارات الأنانية المتطرفة، أما في فترة التحلل داخل بنيات الرأسمالية التجارية–السلعية فلقد أصبحت تربي وتدفع بل وتفرض كل ما من شأنه – بما في ذلك الاستعداء والكذب والتملق والمراوغة– أن يسهل الولوج إلى المناصب والاسترخاء فوق الكراسي الأثيرة.

أتصور أنه من الخطورة بمكان مدح التخصصات «النافعة» أمام

الطفل والمراهق المقبل على خيارات مهنية حاسمة دون فتح نقاش عائلي صريح وعميق حول الأخطار التي يشكلها اللهث وراء هذه التخصصات على أخلاقه الفردية أولاً، ولكن أيضاً على مستقبل مجموع الحياة فوق كوكبنا. من الممكن جداً أن يحول التخصص في «علم الأبناك» المراهق إلى ليبرالي متوحش لا يرى في العالم سوى ساحة حرب على الموارد والأرباح والفوائد يستدعي النصر فيها توظيف أعتى أسلحة الحرب الاقتصادية (إغراء، مضاربة، احتكار، ضغط، تزوير، تملق إداري . . .). لذلك، من المهم جداً أن نفتح أعيننا على المخاطر الفعلية لهذه «المباحث» التي قد تصبح أسماء أو غطاءات باردة لممارسة أخس ما في هذه الحياة: سحق الآخر من أجل الاستفراد/ الاستمتاع بالعالم.

على سبيل الختم: استعجال الخروج نحو الحياة

إن مهمة الآباء هي العمل على تجنيب أبنائهم الارتماء الغبي والخطير في حضن ليبرالية الاستهلاك/ التسليع المتطرف للعالم . . . علينا أن نتذكر هنا الإنذار القوي الذي أطلقه نهاية الستينيات المفكر الإنساني والتقدمي الكبير ايفان إليتش في كتابه المهم **مجتمع بلا مدرسة**. يقول: «إن الحكومات هي الآن (ويقصد نهاية الستينيات) في طريقها لبيع مدارسها لرجال الصناعة والتجارة». أتصور إليتش قائلاً لو قدر له العيش حتى الآن: «إن الآباء هم الآن في طريق بيع أطفالهم لقراصنة (Les Pirates) العصر: المضاربون، والبنكيون، والنصابون، والمحتالون المتخفون وراء أقنعة الاستثمار والتنمية و . . .».

تبدأ مقاومة هذه الانعطافات المضادة للطبيعة البشرية بوعي الآباء بضرورة توجيه الأسرة نحو أهداف وجودية جديدة . . . ليس العيب أن نتخصص في التجارة والبنك، ولكن العيب كل العيب هو تحويل هذه المهن لأدوات للسطو على أرزاق الآخرين. هنا يمكن أن نوظف بعض الأفكار الأساسية لعلم الحفاظ على الحياة (Ecologie) كما طوره المفكر الفرنسي الكبير إدغار موران. إن التربية على الأبعاد الحيوية التي تسكننا وتشكلنا ككائنات مركبة أكبر بكثير من أن تختزل داخل البعد الاقتصادي أو التجاري أو الاستهلاكي/ السلعي تظل، ومن بعيد، إحدى الإمكانيات الأكثر جاذبية لعالمنا. على الآباء أن يربوا أولادهم على الوعي بتجذّرهم المتعدد والعميق داخل الكون، وداخل الكوكب، وداخل الحياة السياسية والاجتماعية.

يعني التجذّر الكوني الوعي بوحدة أصلنا جميعاً كأطفال لهذا الكون تشكلنا من المواد نفسها التي تشكلت بها الشموس والنجوم وبعدها المحيطات والأنهار والحيوانات وكل الكائنات الحية الأخرى فوق أرضنا. إن التربية على وحدة أصلنا الكوني هي المحور الأول في التصور الأيكولوجي للفرد وللعائلة.

يعني التجذّر الكوكبي الوعي بوحدة مشاكل البشر أينما كانوا فوق أرضنا. على الآباء أن يقولوا صراحة لأبنائهم إن لا أحد قادراً على الإفلات مثلاً من المخاطر غير المسبوقة لسخونة الكوكب، وإن الاستهلاك المفرط يخل بالتوازنات الطبيعية والسياسية والاجتماعية في فرنسا كما في المغرب أو بوروندي.

من إحدى زيارات المعلمين البريطانيين إلى المدارس الفلسطينية.

أما التجذّر الأنتروبوسياسي فهو يستدعي النضال اليومي في وجه كل الأخطار الظاهر منها الباطن، ويأتي على رأس هذه الأخطار: استفراد حفنة من البشر بالموارد/ القرارات الدولية، وتصاعد الهشاشة الاجتماعية الرهيبة في العالم، وتفاقم مسلسل التدميرات البيئية.

وإذا كنت ألح في استعجال دمج الوعي بهذه التجذّرات داخل التربية العائلية، فليس فقط لأني أرغب في أن أرى عالماً أكثر تضامناً وأقل توحشاً، ولكن أيضاً، وبشكل أهم ربما، لأن العالم لا يستحق أن نختزله في ساحة حرب كبرى على أشياء في غالبها بلا أية قيمة . . . لقد سبق للشاعر الألماني الكبير هولدرلين أن قال إن الأرض تتسع للجميع، شريطة أن ننظر إليها باعتبارها بنية هي في عمقها من طبيعة دينية. ونحن نعلم ماذا تعنيه كلمة دين في الأصل: تضامن الكل مع الكل لتفادي حدوث مجازر لا تمثل كوارث القرن العشرين أي شيء أمامها، مجازر، كذلك، هي أقرب إلينا مما نتصور.

منير الحجوجي
باحث من المغرب

الهوامش:

[1] في لقاء نظمته مدرسة عليا خاصة بالرباط أواسط سنة 2008 في موضوع العولمة، شدد المحاضر الذي دعي لإلقاء عرض بالمناسبة على ضرورة انخراط الشباب في الأحزاب والمنظمات المدنية، حتى يوصلوا بشكل مباشر وفعال أصواتهم وتطلعاتهم إلى من يهمهم الأمر. في نهاية العرض، تدخل أحد الطلبة وتساءل كيف نطلب من الشباب الانخراط في سيرورات بناء وتطوير المجتمع، في الوقت الذي تعمل فيه الآلات الأيديولوجية للدولة (مدرسة، إعلام، منظمات تابعة . . .) بشدة على تسطيح وعي الشباب وتوجيههم نحو التفاهات من كل نوع، كما تساءل كيف نطلب من شباب الأمة التفكير سياسياً في العالم، في الوقت الذي نمنع عنهم أدوات التفكير السياسي، وأقصى ما نمنحهم هي "أدوات" الجري وراء الأحلام الاستهلاكية من كل نوع. إن تساؤل الطالب الشاب مهم جداً في ما أعتقد، وهو يسير في اتجاه ما أريد قوله هنا: لا يمكن للدولة (المغربية والعربية عموماً) أن تستمر في دعوتها للحداثة والتقدم وأجهزتها تحارب الحداثة والتقدم، لا يمكن صنع الحداثة والعمل في الوقت نفسه على خنق شروط انبثاقها.

من ورشة حول التكون المهني نظمها المركز في قلقيلية.